رسائل غرام

بين نساء شهيرات ورجال عظام

الرسالة العاشرة

من فكتور هوغو الى خطيبته اديل فوشه

(فكتور هوغو أشهر من ان يعرَّف لأنه المجلّي في حلبة الشعر والانشاء كما تشهد له بذلك مؤلفاته وروايات التي أظهر بها مساوئ المجتمع العمراني بطريقة لم يسبقه اليها أحد . ومن احسن ما نُشر له من آثاره الأدبية بعد موته مجموعة رسائله الغرامية التي كان يبعث بها الى خطيبته أديل فوشه . وقد اخذنا منها الرسالة الآتية كتبها في ساعة يأس بلغه فيها ان خطيبته ستقترن بغيره اطاعة لرغبة والديها)

في مثل هذه الايام من السنة الماضية كنا نعدّ الايام الباقية لنا من أمد الفراق . واليوم نعدّ الأيام الباقية لنا من حرية التراسل قبل ان تعتزلي الى بيتكِ الجديد وتتكافي المعيشة مع الرجل الذي قد اختاره لكِ والدكِ ، واني عالم انهُ لا يحق لي أن اكاتبكِ فيما بعد ، وانما تشفع بي ذكرى غرامٍ لا تزال في النفس بقية باقية منهُ . فان كنتُ أدعوكِ الآن رفيقة صباي فلأني لا أزال أطرب لذكرى أيامنا الماضية وأحن الى ربوع صبانا كما يحنّ الفطيم الى أحضان أمه

تلقّيت رسالتكِ الاخيرة مع بريد هذا الصباح فأحببت ان أُجيبكِ عنها قبل ان تنطوي آخر صفحةٍ من استقلالكِ فلا يعود يسوغ لكِ ان تبتسمي لغير زوجكِ او تهتمي بغير مرضاته . وربما كانت هـذه آخر

رسالةٍ مني اليكِ. فائذني لي ان أُخاطبكِ باللهجة التي اعتدتُ مخاطبتكِ بها قبل الآن. لأنكِ تقولين ان الحب الذي يضمّ قلبينا سيظل ثابتاً الى الأبد، وإن إكراه أهلكِ اياكِ على الاقتران بغيري لا يمكن ان ينسيكِ حبنا القديم وعهد غرامنا المنصرم

أراكِ من خلال رسالتكِ تكتمين عني هموماً ثقيلة الاعباء. فلماذا أنتِ حزينة يا اديل ولماذا تفسحين للهموم مجالاً في فؤادكِ المثقل باعباء الغرام؟ ان كان الغد يروعكِ فان لكِ من بعده موقفاً تنسين بهِ مواقف الامس اذ تجدين من حب زوجكِ ما يلهيكِ عن ذكرى غرام فاض بهِ قلبكِ ردحاً من الدهر ثم انطوت صفحته وانطفأت شعلته، وحلّ محلّهُ حبٌّ آخر ربما فتحتْ لكِ السعادة من ورائهِ احضاناً رحيبة

لعلكِ تتهمينني بفتورٍ في الحب. ولكن متى عرفتِ ان رسمكِ لا يبرح من مخيلتي دقيقة واحدة وان قلبي لا يزال يخفق كلما عرَضَ لي ما يذكّرني بكِ، علمتِ ان اليمين التي أقسمتها لكِ تحت تلك الصفصافة سأظلّ اردّدها حتى آخر نفس من الحياة. فافرحي ولا تحزني يا اديل. ان قلباً وقفته على حبّكِ لن ينفسح لغير رسمكِ الجميل. وموقف حبنا هذه أرسخ من أن تعبث بها أيدي الزمان

سحابة وتنقشع يا أديل. فمتى انقشعت لا تعودين تذكرين من أيامنا هذه اكثر مما يذكر الشيخ من ايام طفولته. لأن واجبات الغد ستنسيكِ أحلام اليوم، ودواء الحب المستحكم فيكِ سيشفيهِ مرور الزمان. وما الذي يهمكِ غداً ولكِ من ثغور بنيكِ ما ينسيكِ ابتسامة حبيبٍ

قديم ، ومن محبة زوجكِ ما يفتح لكِ ابواب فردوس كنت قد اغمضت عينيكِ عنهُ قبلاً لتتمتعي باحلامٍ زائلة ؛ فافرحي ولا تحزني لأنني أنا ايضاً أفرح متى رأيتكِ في سعادة وهناء

أرى الحياة مملّة يا أديل . لم أعد أطرب لشيءٍ فيها كما كنت اطرب لها من قبل . لأن الآمال التي كنت أتعلل بها في الأمس قد زالت فصرتُ أرى الحياة أشبه بدور هزلي يلعبه الانسان في العالم ثم يفسح المجال لشقيّ آخر يجيء بعده . فما الذي يحبّبها الينا ولا شيء يخلد فيها سوى الآمال ؟ نعم ان الآمال كثيرة متشعبة ، وأنعشها للنفس ما كان مبعثهُ القلب ومنشأه الحب . ولكن أية لذةٍ للحياة اذا انطوت صفحة تلك الآمال وحلّ محلّها اليأس وانتقلت النفس من حلمٍ هنيءٍ الى يقظة رائعة

تقولين انكِ عازمةٌ على الانقطاع عن العالم ، والالتجاء الى دير تقضين فيهِ البقية الباقية لكِ من الحياة . أفما يكفيكِ أن لكِ من قلبي ديراً ليس فيهِ سواكِ يا أديل ؟ ألا يكفيكِ أنكِ تحوّلين هنالك من عابدةٍ الى معبودة فتسمعين من مزامير الغرام وأناشيده ما يفتح لروحكِ الطاهرة فردوساً تتنعمين فيهِ ؟ فان خطرَتْ لكِ فيهِ العبادة فهنالك تجدينها على أسماها وانما هي موجهة اليكِ عند مذبح الغرام

كنت البارحة في ملهى . . . وكانت عيناي شاخصتين كلّ الوقت الى المقصورة التي كنا فيها معاً لآخر مرّة . وكان فيها رجل ضخم الجثة وبرفقتهِ فتاة حسناء في مقتبل العمر وهما يقهقهان لنكات الممثلين ويصفقان لها طرباً . فقلت في نفسي هل هما سعيدان كما كنا في تلك

المقصورة منذ اشهر خلت ؟ وهل يمكن ان يبلغا من السعادة ما بلغناه منها في عهد غرامنا القصير ؟

ما اطيب قلبك يا أديل ! تطلبين مني ان اسامحك وانتِ تعلمين اني لا أعرف لكِ سيئة غير ما أسأتِ بهِ الى نفسك اذ أحببتني حباً مخلصاً كنتِ في غنى عنهُ . فحرامٌ عليكِ ان تستذني نفسكِ الطاهرة وتنسبي اليها ما هي بريئة منهُ . وان كانت سيئات البشر كلها من قبيل ما تستذنبين بهِ نفسك فما أقدسها ذنوباً تفتح لمرتكبيها أحضان الآلهة ، وتبلغ بهم الى نعيمٍ تجري من تحتهِ الانهار . أأنتِ تذنبين يا أديل ؟ اذاً مَن بعدكِ لا يخطئ في العالم ؟ ولمن تبقى أبواب السماء مفتوحة إن هي أُوصدت في وجوه الملائكة ؟

لي حاجةٌ اليكِ يا أديل وهي ان تسمحي لي بحفظ صورتكِ التي اهديتها اليَّ في عيد ميلادكِ الفائت فانها التعزية الوحيدة الباقية لي بعد مأساتنا هذه . فإن أنكرتِها عليَّ فليس لي الاَّ ان أُعيدها اليكِ . ولكن ثقي انكِ سواء استرجعتها مني او لم تسترجعيها فانَّ رسمكِ منقوش في قلبي ولن يمحوه مرور الأيام او كرور الأعوام

سلام الى حين اللقاء ورآء « مرسحنا » الفاني . سلام يحمله اليكِ النسيم في اليقظة ، والملائكة في الحلم　　فكتور

(بقلم سليم عبد الاحد)